الفرح والحزن

الفرح والحزن توأمان متلاصقان، يتغذى كل منهما من الآخر وعلى الآخر، فمن لا يعرف الفرح، لا يعرف الحزن أيضاً، لأنه توأم الفرح ونقيضه في ذات الوقت. إن الفرح والحزن وجهان لشعور إنساني واحد، إذ فيما يعبر الفرح عن زهو الإنسان وثقته بنفسه وتمتعه بلحظات أو أيام من حياته، يعبر الحزن عن تواضع الإنسان وعمق مشاعره واعترافه بالضعف أمام المحن التي تسلبه ما هو عزيز عليه. إن من لا يتذوق طعم الحزن يتنازل عن جزء أساسي من شعوره الإنساني، ما يجعله ضعيف القدرة على تذوق طعم الفرح، ومن لا يعيش آلام الحزن ومعاناته، لا يتعرف على ألوان الغبطة والسعادة التي ترافق الفرح. ولذا حين يكبر الفرح ويتسامى في عين الإنسان، يشتد الحزن ويتعمق في قلبه، وحين يُكبت الحزن، يصغر الفرح.

إن من يحاول كبت مشاعره وإخفاء شعوره بالفرح والحزن، لا يتسنى له الشعور بنشوة الفرح كما يجب، ولا يقوى على التعبير عن عمق الحزن على حقيقته، لأن الكبت يحرم الإنسان من حرية التعبير عما يجول في رأسه من أفكار وما يتوالد في قلبه في أحاسيس. لذا كان على الإنسان أن يفرح من قلبه كلما لاحت معالم الفرح، وأن يحزن حين يقع الحزن دون خجل أو وجل. بل على الإنسان أن يذهب مع الفرح إلى حدوده القصوى دون شعور بالخوف أو الإحراج، وأن يساير الحزن حتى يرتوي من أحزانه ويجف نهر الدمع في عينيه. من أهم شروط أن يكون الإنسان إنساناً، أن يعبر عن أحاسيسه بأمانة، وأن يترك لكل من الفرح والحزن أن يأخذ مداه دون كبت، ولكن دون مبالغة أو تصنع.

الإنسان الذي لا يفرح من أعماق قلبه ولا يحزن من أعماق وجدانه يتنازل طواعية عن جزء أساسي وهام من إنسانيته، لأن الفرح والحزن هما الهواء والماء اللذان يمدان المشاعر الإنسانية عامة برحيق الحياة، ما يجعل الحياة تبدو في كل مناسبة وقد لبست حلة جديدة، تتراوح ما بين زهو الربيع ووقار الخريف. حين يغيب الفرح والحزن عن العين، تجف عروق الحب والحنان، وينضب دم الشوق والعشق، ويتحول الإنسان إلى هيكل بشري مفرغ من العواطف المرهفة، والأحاسيس الشفافة المعبرة.

مشكلة العقائدي المتزمت والسياسي المتسلط مع الفرح والحزن كبيرة للغاية، وكذلك مشكلتنا مع كل منهما. فالعقائدي المتزمت والسياسي المتسلط يتحاشيان عادة إبداء الشعور العارم بالفرح حتى لا يوصفان

بالاستخفاف أو الاستهتار، ويتحاشيان التعبير الصادق عن الحزن حتى لا يوصفان بالضعف أو الانهيار، كما أنهما يتحاشيان إبداء الإعجاب بكل شيء وانجاز كبير كي لا يوصفان بالجهل والانبهار. وفي الحالتين، يبدو كل من العقائدي والسلطوي قائداً أو زعيماً قاسي القلب بلا أحاسيس شفافة، مفكراً من نوع خاص بلا مشاعر جياشة، وكياناً إنسانياً غريباً بلا عواطف فياضة. وهذا من شأنه أن يجعل كل منهما مشروع إنسان غير مكتمل العواطف، لا يشعر بما نشعر، لا يحس بوجودنا كما نحس بوجوده، لا يفهم مظالمنا كما يريدنا أن نفهم أوامره وتعليماته، لا يتفهم توسلاتنا كما يريد منا أن نتفهم أعذاره وعقم فلسفته، وغير قادر على إقامة العدل بيننا، ولا التجاوب مع أمانينا وتطلعاتنا.